تراث الإسلام



حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها

مصطفى السقا
الأستاذ بكلية الآداب
جامعة القاهرة

ابراهيم الأبيارى
مدير إدارة إحياء
التراث القديم

عبد الحفيظ شلبى
مدير المكتبات الفرعية
بدار الكتب المصرية

القسم الأول

يشمل الجزأين : الأول والثانى

الطبعة الثانية

١٣٧٥ هـ = ١٩٥٥ م

ملتزم الطبع والنشر
شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

هذه الطبعة الثانية من سيرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، التى انتخبها ابن هشام المعافرىّ ، من أصلها لمحمد بن إسحاق المطّلبى .

زدناها تحقيقا وضبطا وعناية ، ونرجو من الله سبحانه وتعالى أن ينفع بها إخواننا المسلمين فى آفاق الأرض ، وأن تنال عند العلماء وذوى الفضل ، ما نالته الطبعة الأولى من حسن القبول ، وتمام التقدير ، والله ولىّ التوفيق .

مدير شركة مكتبة ومطبعة
مصطفى البابى الحلبى وأولاده

ربيع الأول : سنة ١٣٧٥
نوفمبر : سنة ١٩٥٥

محمود نصار الحلبى

مقدمة الناشرين[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على سابغ إفضاله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله .

أما بعد ، فهذا كتاب « سيرة رسول الله » صلى الله عليه وسلم ، الذى استخرجه الإمام أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى ، من كتاب « السيرة » لمحمد بن إسحاق المطَّلبىّ ، وهو أقدم السير الجامعة وأصحها .

(المغازى والسير) :

لفظتا « المَغازى والسِّيَر » إذا أُطلقتا ، فالمراد بهما عند مؤرّخى المسلمين تلك الصفحة الأُولى من تاريخ الأمَّة العربية : صفحةُ الجهاد فى إقامة صَرْح الإسلام وجمع العرب تحت لواء الرسولِ محمدٍ عليه الصلاةُ والسلام، وما يُضاف إلى ذلك من الحديث عن نشأة النبىّ ، وذكر آبائه ، وما سبق حياته من أحداث لها صلة بشأنه وحياة أصحابه الذين أبْلَوْا معه فى إقامة الدين ، وحَمَلُوا رِسالَته فى الخافِقَين .

وظهور الرسالة المحمدية أعظم حادث فى تاريخ العرب خاصَّة، والبشر عامَّة : لأن حياة العرب سادة ودَهْماء — أيام الرسول — كانت له ولدينه، فما اجتمع مَلأٌ منهم أو تفرّق إلا فيه، ولا تحدثوا فى نَدِيِّهم إلا عنه، ولا تحركت كتائبهم وجيوشهم إلا له ، حتى كان قُصَارَى بلائه فيهم اجتماعهم على الإسلام ، ونَبْذُهُمْ ما كانوا فيه من الجاهلية الجَهْلاء ، والضَّلالةِ العمياء .

---

(1) المراجع التى رجعنا إليها فى هذا البحث هى :

بغية الوعاة للسيوطى – تاريخ ابن كثير – تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان – تاريخ بغداد للخطيب البغدادى – تهذيب التهذيب للعسقلانى – حسن المحاضرة للسيوطى – ضحى الإسلام لأحمد أمين – الطبقات الكبرى لابن سعد – عيون الأثر فى المغازى والشمائل والسير ، لابن سيد الناس – الفهرست لابن النديم – كشف الظنون لملا كاتب جلبى – الكمال فى معرفة الرجال لابن النجار – معجم الأدباء ومعجم البلدان لياقوت – معجم ما استعجم للبكرى . الوسيط لأحمد الإسكندرى ومصطفى عنانى – وفيات الأعيان لابن خلكان .

ثم برزت هذه الأمة العربية ، التي كانت قد أنكرتها الأمم ، وتخطفهم الناس من حولهم ، إلى ميادين الحياة ، تؤدي رسالتها في هداية البشر ، وتقيم القسطاس بين الناس ، وتضرب المثل الأعلى في علو الهمة ، والبطولة ، والإيثار ، ونصرة الحق ، والتعاون على البر والتقوى ، والاستمساك بمكارم الأخلاق .

هذا مجمل ما تتضمنه سيرة النبي صلى الله عليه وسلم والرعيل الأول من صحابته ، الذين تابعوه على الهدى ودين الحق ، وسبقوا إلى تدوين صحف المجد والفخار العربي بما خلدوا من أعمالهم على وجه الزمان .

ثم دب إلى بعض من خلف بعدهم من الزعماء التحاسد والتباغض ، وقلة التناصر والتعاون ، فتشعبت بالأمة السبل ، وتفرقت بهم النواحي ، فكان لهم إلى جانب ذلك التاريخ تاريخ ، وانقسم هذا التاريخ بانقسام الأمة دولا ، كان لكل دولة تاريخها الخاص في موقعها الجديد ، واتصالها بغيرها من الدول .

(التاريخ عند العرب) :

ولم يكن للعرب قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم من مادة التاريخ إلا ماتوارثوه بالرواية ، مما كان شائعا بينهم من أخبار الجاهلية الأولى ، كحديثهم عن آبائهم وأجدادهم ، وأنسابهم ، وما في حياة الآباء والأجداد من قصص ، فيها البطولة ، وفيها الكرم ، وفيها الوفاء ؛ ثم حديثهم عن البيت وزمزم وجرهم ، وما كان من أمرها ، ثم ما كان من خبر البيوتات التي تناوبت الإمرة على قريش ، وما جرى لسد مأرب ، وما تبعه من تفرق الناس في البلاد ، إلى أمثال هذا مما قامت فيه الذاكرة مقام الكتاب ، واللسان مقام القلم ، يعي الناس عنه ، ويحفظون ، ثم يؤدون .

ثم ظهر مورد جديد بظهور النبي صلى الله عليه وسلم وظهور دعوته ، هي أحاديث الصحابة والتابعين عن ولادته صلى الله عليه وسلم وحياته ، وما ملئت به هذه الحياة من جهاد في سبيل الله ، واصطدام مع المشركين ، ومن ليس على دينه ، ودعوة إلى التوحيد ، وما كان فيها من أثر للألسنة والسيوف . فهذا وذاك كان مادة للتاريخ أولا ، ثم للسيرة ثانيا .

ولم يدوّن فى تاريخ العرب أو السيرة شىء ، إلى أن مضت أيام الخلفاء ، بل لم يُدوّن فى هذه المدة غير القرآن ومبادئ النحو . فقد رأينا المسلمين يَحْفِزُهُمْ حرصهم على حفظ القرآن إلى كتابته فى حياة النبىّ وبعده ، كما حفزتهم مخافتهم من تفشى العجمة على الألسنة إلى تدوين النحو ، وذلك لما اختلط العرب بغيرهم عند اتساع الرقعة الإسلامية .

(بدء التأليف فى السيرة) :

ولما كانت أيام معاوية ، أحَبَّ أن يُدوَّن فى التاريخ كتاب ، فاستقدم عَبَيد ابن شَرِيَّة الجرهمى من صنعاء ، فكتب له كتاب الملوك وأخبار الماضين . بعد هذا رأينا أكثر من واحد من العلماء يتجهون إلى علم التاريخ من ناحيته الخاصة لا العامة ، وهى سيرة الرسول . ولعلهم وجدوا فى تدوين ما يتعلق به عليه الصلاة والسلام شيئا يحقِّق ما فى أنفسهم من تعلق به ، وحبّ لتخليد آثاره ، بعد أن مُنِعُوا من تدوين أحاديثه إلى أيام عمر بن عبد العزيز ، مخافة أن يختلط الحديث بالقرآن ، فجاء أكثر من رجل كلهم محدّث ، فدوّنوا فى السيرة كتبا . نذكر منهم : عُروة بن الزبير بن العوّام الفقيه المحدّث ، الذى مكَّنه نسبه من قِبَل أبيه الزبير وأمه أسماء بنت أبى بكر أن يروى الكثير من الأخبار والأحاديث عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وحياة صدر الإسلام .

وحسبك أن تعلم أن ابن إسحاق ، والواقدى والطبرى ، أكثروا من الأخذ عنه ، ولا سيما فيما يتعلق بالهجرة إلى الحبشة ، والمدينة ، وغزوة بدر . وكانت وفاة عروة — فيما يظنّ — سنة ٩٢ هـ .

ثم أبان بن عثمان بن عفان المدنىّ المتوفى سنة ١٠٥ هـ . فألّف فى السيرة صحفا جمع فيها أحاديث حياة الرسول .

ثم وَهْب بن مُنَبِّه اليمنى المتوفى سنة ١١٠ هـ . وفى مدينة هَيْدِلْبرج بألمانيا قطعة من كتابه الذى ألّفه فى المغازى .

وغير هؤلاء كثير ، منهم من قضى نحبه قرب تمام الربع الأوّل من القرن الثانى ،

كشُرَحْبيل بن سعد المتوفى سنة ١٢٣ هـ . وابن شهاب الزهرىّ المتوفى سنه ١٢٤ هـ . وعاصم بن عمر بن قتادة المتوفى سنة ١٢٠ هـ . ومنهم من جاوزه بسنين ، كعبد الله بن أبى بكر بن حَزْم المتوفى سنة ١٣٥ هـ .

وكان هؤلاء الأربعة ممن عُنُوا بأخبار المغازى ، وما يتصل بها .

ومنهم من عاش حتى أوشك أن يدرك منتصف القرن الثانى ، أو جاوزه بقليل ، كموسى بن عُقْبة المتوفى سنة ١٤١ هـ ، ثم مَعْمَر بن راشد المتوفى سنة ١٥٠ هـ ، ثم شيخ رجال السيرة محمد بن إسحاق المتوفى نحو سنة ١٥٢ هـ .

وجاء بعد هؤلاء غيرهم ، نذكر منهم زيادا البَكائىّ المتوفى سنة ١٨٣ هـ ، والواقدى صاحب المغازى المتوفى سنة ٢٠٧ هـ ، ومحمد بن سعد صاحب الطبقات الكبرى المتوفى سنة ٢٣٠ هـ . وقبل أن تستأثر المنية بابن سعد عدت على ابن هشام فى سنة ٢١٨ هـ . وابن هشام هو الرجل الذى انتهت إليه سيرة ابن إسحاق ، فعرفت به وشاع ذكره بها .

(علم السيرة فى أدواره المختلفة) :

ولم تنقطع العناية بالتأليف فى السيرة إلى يومنا هذا . إلا أن الموضوع فى ذاته ليس أمرا يقوم على التجارب ، أو فكرة يقيمها برهان وينقضها برهان ، شأن النظريات العلمية التى نرى اتصال العلماء بها اتصال تجديد وتغيير على مرّ السنين ، وإنما هو أمر عماده النقل والرواية .

فكان المشتغلون به أوّلا محدّثين ناقلين ، ثم رأينا من جاء بعدهم جامعين مبوّبين . ولما استوى للمتأخرين ماجمع المتقدمون ، جاء طور النقد والتعليق ، كما فعل ابن هشام فى سيرة ابن إسحاق .

فكان هذا التراث بين أيدى من جاء بعدهم شيئا غير قابل لجديد فى جوهره ، كلّ مجهود فيه كان فى الشكل والصورة لايمسّ الجوهر إلا بمقدار . وقد رأينا المؤلِّفين فيه على ضربين : فريق عاش فى ظلّ كتب الأوّلين ، يتناولها بالشرح ، أو الاختصار ، أو النظم ليسهل حفظها . وفريق صبغ نفسه بصبغة المؤلف المبتدع ،

فجمع بين يديه كتب السيرة ، وخرج منها بكتاب هو فى ظاهره له ، وفى حقيقته أنه لغير واحد ممن سبقوه .

نذكر من الفريق الثانى ابن فارس [1] اللغوى المتوفى بالرىّ سنة ٣٩٥ هـ ، ومحمد ابن علىّ بن يوسف الشافعى الشامى المتوفى سنة ٦٠٠ هـ ، وابن أبى طىّ يحيى بن حميد المتوفى سنة ٦٣٠ هـ ، وظهير الدين على بن محمد كازرونى المتوفى سنة ٦٩٤ هـ وعلاء الدين علىّ بن محمد الخلاطى الحنفى المتوفى سنة ٧٠٨ هـ ، وابن سيد الناس [2] البصرى الشافعى المولود سنة ٦٦١ هـ ، والمتوفى سنة ٧٣٤ هـ ، وشهاب الدين الرُّعينى الغرناطى [3] المتوفى سنة ٧٧٩ هـ ، وأبا عبد الله محمد بن أحمد ابن علىّ بن جابر الأندلسىّ [4] المتوفى سنة ٧٨٠ هـ . ثم محمد بن يوسف الصالحى صاحب السيرة الشامية [5] المتوفى سنة ٩٤٢ هـ . وعلىّ بن برهان الدين صاحب السيرة الحلبية [6] المولود بمصر سنة ٩٧٥ هـ والمتوفى سنة ١٠٤٤ هـ . وغير هؤلاء نقتصر منهم على ما أوردنا .

ونذكر من رجال الفريق الأوّل : السُّهَيلى ، وأبا ذرّ ، وكلاهما شرح سيرة ابن هشام ، وقطب الدين عبد الكريم الحماعيلىّ [7] المتوفى سنة ٧٣٥ هـ ، الذى شرح سيرة محمد بن على بن يوسف ، وقاسم بن قَطلوبغا ماخص سيرة مُغْلطاى [8] ،

---

(١) بدار الكتب المصرية نسختان مخطوطتان من سيرة ابن فارس برقمى ٤٦٠ ، ٤٩٤ تاريخ .

(٢) لابن سيد الناس كتابه « عيون الأثر ، فى فنون المغازى والشمائل والسير » ، وبدار الكتب المصرية نسخ خطية منه .

(٣) له « رسالة فى السيرة والمولد النبوى » بدار الكتب المصرية مخطوطة (برقم ٤٩٤ مجاميع تاريخ)

(٤) كتابه يسمى « رسالة فى السيرة والمولد النبوى » ضمن مجموعة مخطوطة بدار الكتب المصرية مع الرسالة المتقدمة (برقم ٤٩٤ مجاميع تاريخ) .

(٥) واسمها : « سبل الهدى والرشاد ، فى سيرة خير العباد . . . الخ » . ومنها بدار الكتب المصرية نسختان مخطوطتان : إحداهما فى أربعة أجزاء . والأخرى موجود منها جزآن فقط ، وهما : الثالث والخامس .

(٦) واسمها : « إنسان العيون ، فى سيرة الأمين المأمون ، عليه الصلاة والسلام » ومنها بدار الكتب أكثر من نسخة .

(٧) وسمى كتابه : « المورد العذب الهنى ، فى الكلام على سيرة عبد الغنى » .

(٨) هو الحافظ علاء الدين مغلطاى المولود سنة ٦٨٩ هـ ، والمتوفى فى شعبان سنة ٧٦٢ هـ وله فى السيرة والتاريخ كتاب « الإشارة إلى سيرة المصطفى ، وآثار من بعده من الخلفا » انتهى فيه إلى نهاية الكلام على الدولة العباسية سنة ٦٥٦ هـ . وبدار الكتب منه أكثر من نسخة ، كلها مخطوط .

وعزالدين ابن عمر الكنانى ، وكان له فيها مختصر ؛ ثم أبا الحسن علىّ بن عبد الله ابن أحمد السمهودى المتوفى بالمدينة سنة ٩١١ هـ .

وممن نظم السيرة وصاغها شعرا عبد العزيز بن أحمد المعروف بسعد الديرى المتوفى فى حدود سنة ٦٠٧ ، هـ وأبو الحسن فتح بن موسى القَصْرى المتوفى سنة ٦٦٨ هـ . وابن الشهيد المتوفى سنة ٧٩٣ هـ .

(نشأة الموالد) :

وثَمّ ضرْب آخر من التأليف فى السيرة ، هو من نوع التلخيص ، إلا أنه تلخيص لناحية خاصة من نواحى الرسول : عن مولده وما يتعلق بهذا المولد الكريم ، وما يسبقه من إرهاصات ؛ وعن نشأته فى طفولته ، وما إلى تلك الطفولة من خوارق يرتبط حدوثها به صلى الله عليه وسلم ، ثم حياته من شبابه إلى بلوغه السنّ التى حمل فيها النبوّة ، واضطلع بعبءِ الرسالة ، وما طبع عليه من خلق طيب وصفات حميدة ، وبُعْدٍ عما كان يألفه الشبّان فى أيامه .

هذا العمل سمّه إن شئت ترجمة مختصرة للصدر الأوّل من حياة الرسول ، ولمحة سريعة عن تاريخه بعد الرسالة . وقد يسميه بعض الناس « المولد النبوى » ، وهو من قبيل ما يُعِده العلماء الدينيون ليلقوه فى الموسم الرسمى العام بعد العام فى المساجد أو فى غيرها . وقد زخرت بهذا النوع خزانة التأليف ، حتى أصبحت الرسائل التى وُضعت فيها لاتدخل تحت حصر .

(السير والنقد) :

ولعل النظر إلى تراث السالفين ولا سيما ما يتصل منه بعلم السير ، نظرة فيها الكثير من التقديس ، هو الذى حال دون هؤلاء وهؤلاء من أن يقفوا من هذا العلم موقفا فقدناه فى جميع المؤلفين المتقدمين ، على اختلاف طبقاتهم . فلم نر منهم من عرض لما تحمله السير بين دفتيها . من أخبار تتصف بالبعد عن الحقيقة ، فنقدها وأتى على مواضع الضعف منها ؛

ولعلَّ الذين تناولوا السير بالتلخيص والاختصار ، حين استبعدوا بعض هذه الأخبار ، استبعدوها غير مؤمنين بصحتها ، لاتخفيفا من ثقل الكتاب .

هذا ماحُرِمَه هذا العلم فى جميع أدواره السالفة إلى ما قبل أيامنا هذه بقليل ، إذ رأينا الإيمان بأن فى السيرة أخبارا لاتتصل بالحقّ فى قليل ولا كثير ، تصحبه الجرأة ثم الإقدام ، ورأينا فكرة جديدة تجرى بها أقلام مجدّدة ، يتناول أصحابها الخبر أو الخبرين من السيرة ، مما كان يُتخذ مطعنا علينا فى شخص النبىّ صلى الله عليه وسلم ، أو ما يتصل به ، فخلصوه مما لصق به مما ليس منه ، وأقاموا حوله سياجا من الحجج والبراهين ، صحّ بها وأصبح حجة على الطاعنين فيه ، ومثل هذا مافعله الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى قصة النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وتزويجه زينب بنت جحش من زيد بن حارثة ، ثم ما كان من تزوّج الرسول صلى الله عليه وسلم إياها بعد تطليق زيد لها مما أرجف فيه الطاعنون ولَغَوا لَغْوًا كثيرا .

ومنهم من عرض للكتاب فى قصة أو قصتين منه ، فصاغها فى أسلوب جديد ، ومثَّل للناس الخبر فى قالب قصصى ، خرج به عن أسانيده وذِكْر رواته ، تلك الطريقة التى هى سرّ تقديس هذ الأخبار فى هذه الكتب ، فبدت المعانى فى هذا القالب الجديد كما يبدو الجسد فى الغلالة الرقيقة لاتكاد تخفى منه شيئا ، وهذا الأسلوب الجديد بما يتضمن من التهكم بالفكرة السقيمة والخبر الغثّ ، يخلق به المؤلف فى القارئ روح التحفظ فى قبول الأفكار وتسامها .

ومنهم من جرى مع ابن إسحاق فى شوطه ، فتناول السيرة كما تناولها ابن إسحاق مبتدئا بميلاد الرسول وماسبقه أو عاصره من حوادث ، ثم جرى يذكر حياة الرسول إلى أن قبضه الله إلى جواره ، ناقلا من الأخبار مايرى فيها القرب من الحق ، ومستبعدا مالايجرى فى ذلك مع فكرته ومايعتقد ، مفندا مزاعم الطاعنين ، رادّا على المكذّبين .

فجاء كتابه سيرة للرسول ، جديدة فى أسلوبها ، نقية من اللَّغو والهُراء .

ونحن إذ نخرج للناس سيرة ابن هشام ، نخرجها بما فيها من هذا وذاك ، لانبغى إلا أن نضع بين يدى العلماء نصا صحيحا لأقدم كتاب جامع بين سيرته ومغازيه صلى الله عليه وسلم .

(مؤلفون جمعوا بين السيرة والتاريخ) :

وثمَّ مؤلفون آخرون ؛ وَصَلوا سيرة الرسول بما بعدها من الحوادث والأخبار ؛ فى الأزمان التى تعاقبت ، والسنين التى توالت ، فجاءت سيرة الرسول فى كتبهم أمرًا غير مقصود لذاته : بل حلقة من حلقات التاريخ العام الذى بدأه بعضهم من بدء الوجود ، كابن جرير الطبرى ؛ وبدأه فريق آخر بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم كالإمام الحافظ أبى شجاع شيرويه صاحب كتاب رياض الأنس ، المتوفى سنة ٥٠٩ هـ .

(سبب وضع سيرة ابن إسحاق) :

كان ابن إسحاق من بين أعلام القرن الثانى ، وكان له علمه الواسع ، واطلاعه الغزير فى أخبار الماضين ؛ وشاءت المقادير أن يدخل ابن إسحاق على المنصور ببغداد — وقيل بالحيرة — وبين يديه ابنه المهدى ؛ فقال له المنصور : أتعرف هذا يا بن إسحاق ؟ قال : نعم ، هذا ابن أمير المؤمنين ؛ قال : اذهب فصنف له كتابا منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام إلى يومك هذا .

فذهب ابن إسحاق ، فصنَّف له هذا الكتاب ، فقال له : لقد طوّلته يابن إسحاق ، اذهب فاختصره . فاختصره ، وألقى الكتاب الكبير فى خزانة أمير المؤمنين [1] .

ولكن بعض الدارسين يرى أن ابن إسحاق لم يؤلِّف كتابه بأمر من الخليفة [2] ، ولا فى بغداد أو الحيرة ، وإنما ألفه فى المدينة قبل إقامته لدى العباسيين . ويستدل على ذلك بأن جميع من رَوَى عنهم مدَنيون ومصريون وليس فيهم أحد من العراق ، وأن إبراهيم بن سعد تلميذه المدنى رَوَى الكتاب عنه . بل نرى فى الكتاب حوادث ما كان العباسيون ليرضَوْا عنها ، مثل اشتراك العباس مع الكفار فى غزوة بدر ، وأسر المسلمين إياه . ذلك الخبر الذى حذفه ابن هشام بعدُ خوفا من العباسيين .

---

(١) يظن أن من النسخة الأصلية ، رواية ابن إسحاق ، نسخة فى مكتبة كوبريلى بالآستانة .

(٢) انظر كتاب المغازى الأولى ومؤلفوها لهورفتس ، ترجمة الدكتور حسين نصار ص ٦٤ ومابعدها .

وتبين من سيرة ابن هشام ، وما اقتطفه الطبرى وغيره من سيرة ابن إسحاق أنها كانت أصلا مقسمة إلى ثلاثة أجزاء : المبتدأ ، والمبعث ، والمغازى . أما المبتدأ فيتناول التاريخ الجاهلى ، وينقسم إلى أربعة فصول : يتناول أولها تاريخ الرسالات السابقة على الإسلام ، وثانيها تاريخ اليمن فى الجاهلية ، وثالثها تاريخ القبائل العربية وعباداتها ، والرابع تاريخ مكة وأجداد الرسول صلى الله عليه وسلم . ولا يعنى ابن إسحاق فى هذا الجزء بأسانيد أخباره إلا نادرا ، ويستقى من الأساطير والإسرائيليات .

أما المبعث ، فيشمل حياة النبىّ عليه الصلاة والسلام فى مكة والهجرة . ونرى المؤلف فيه يصدر الأخبار الفردية بموجز حاو لها ، ويدوّن مجموعات كاملة من القوائم فقائمة لمن أسلم من الصحابة بدعوة أبى بكر ، وأخرى بالمهاجرين إلى أرض الحبشة ، وثالثة لمن عاد من أرض الحبشة لمّا بلغهم إسلام أهل مكة . وغيرها . ويُعْـنَى بالترتيب الزمنى للحوادث ، كما تزداد عنايته بأسانيد الأخبار .

وأما المغازى ، فتتناول حياة النبىّ فى المدينة ، وأجرى فيها على أن يبدأ الخبر بموجز حاد لمحتوياته ثم يتبعه بخبر من جميع الأقوال التى أخذها من رواته ثم يكمله بما جمعه هو نفسه من المصادر المختلفة . وتكثر القوائم أيضا ، من الغزوات المختلفة . ويلتزم إيراد الأسانيد ، والترتيب الزمنى .

(أثر ابن هشام فى سيرة ابن إسحاق) :

ثم قيّض الله لهذا المجهود — مجهود ابن إسحاق — رجلا له شأنه ، هو ابن هشام ، المعافرىّ فجمع هذه السيرة ودوّنها . وكان له فيها قلم لم ينقطع عن تعقّب ابن إسحاق الكثير مما أورد بالتحرير، والاختصار ، والنقد أو بذكر رواية أخرى فات ابن إسحاق ذكرها ، هذا إلى تكملة أضافها ، وأخبار أتى بها . وفى هذه العبارة التى صدّر بها ابن هشام كتاب السيرة ما يكشف لك عن دستور ابن هشام ونهجه ، قال :

«وأنا إن شاء الله مبتدئ هذا الكتاب بذكر إسماعيل بن إبراهيم ، ومَن ولدَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مِن ولده ، وأولادهم لأصلابهم ، الأوّل فالأوّل ، من إسماعيل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وما يعرض من حديثهم ،

وتارك ذكر غيرهم من ولد إسماعيل ، على هذه الجهة للاختصار ، إلى حديث سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتارك بعض مايذكره ابن إسحاق في هذا الكتاب مما ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ذكر ، ولا نزل فيه من القرآن شيء ، وليس سببا لشيء من هذا الكتاب ، ولا تفسيراً له ، ولا شاهدا عليه ، لما ذكرت من الاختصار ، وأشعاراً ذكرها لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها ، وأشياء بعضها يَشْنُع الحديث به ، وبعضٌ يسوء بعضَ الناس ذكره ، وبعضٌ لم يُقِرَّ لنا البَكَّائِيُّ بروايته ، ومستقصٍ إن شاء الله تعالى ما سوَى ذلك منه بمبلغ الرواية له ، والعلم به ـ.

فترى أنه استبعد من عمل ابن إسحاق تاريخ الأنبياء من آدم إلى إبراهيم ، وغير هذا من ولد إسماعيل ، ممن ليسوا فى العمود النبوى ، كما حذف من الأخبار ما يسوء ومن الشعر مالم يثبت لديه ، ثم استقصى وزاد بما يملك من علم ، ويسترشد من فكرة فجاءت السيرة على ماترى معروفة به ، منسوبة إليه ، حتى ليكاد الناس ينسَوْن معه مؤلفها الأول : ابن إسحاق .

(السهيلى وغيره من شراح سيرة ابن هشام) :

وجاء أبو القاسم عبد الرحمن السُّهَيْلى المتوفى سنة ٥٨١ هـ ، فعُنِىَ بهذا الكتاب ، وتناوله على نحو جديد ونهج آخر ، وهو بمنزلة الشرح والتعليق عليه . فوضع كتابه « الروضَ الأُنُف » فى ظل مجهودى ابن إسحاق وابن هشام ؛ يتعقبهما فيما أخبرا بالتحرير والضبط ، ثم بالشرح والزيادة ، فجاء عمله هذا كتابا آخر فى السيرة بحجمه وكثرة ماحواه من آراء ، تشهد لصاحبها بطول الباع ، وسعة الاطلاع .

وعلى شاكلة مجهود السهيلى جاء – فيما يظنّ – مجهود بدر الدين محمد بن أحمد العينى الحنفى ، فوضع عليه كتابه « كشف اللثام » ، وكان فراغه منه سنة ٨٠٥ هـ . وليس بين أيدينا من هذا الكتاب نسخة حتى نحكم لصاحبه ، ونتعرّف عمله .

ثم لاننسى مجهود أبى ذرّ الخُشَنِىّ ، فقد تصدّى للكتاب ، فشرح غريبه ، ولم ينس أن يعرض لما فيه من أخطاء ، فجاء عمله مع عمل السُّهَيلى متممين لمجهود عظيم ، سبق به ابنُ إسحاق وابنُ هشام .

(مختصرو سيرة ابن إسحاق) :

ولم نر بعد هؤلاء رجلا فى علمهم تناول الكتاب بجديد فى الشرح والتعليق ، بل رأينا الهمم تنصرف من هذا إلى الاختصار ، فجاء برهان الدين إبراهيم بن محمد المرحِّل الشافعى ، فاختصر كتاب السيرة ، وزاد عليه أمورًا ، ورتبه فى ثمانية عشر مجلسا ، وسماه : « الذّخيرة ، فى مختصر السيرة » . وكان فراغه منه سنة ٦١١ هـ . ثم جاء بعده عماد الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن الواسطى ، فاختصره فى كتاب سماه : « مختصر سيرة ابن هشام » ، وفرغ منه — فيما يقال — سنة ٧١١ هـ .

(ناظمو سيرة ابن إسحاق) :

ثم رأينا بعد هؤلاء فئة النظامين الذين لم يكن همهم إلا أن يصبوها فى قالب جديد هو الشعر . فنظمها أبو محمد عبدالعزيز بن محمد بن سعيد الدميرى الدِّيرينىّ المتوفى فى حدود سنة ٦٠٧ هـ ، وأبو نصر الفتح بن موسى بن محمد نجم الدين المغربى الخضراوى المتوفى سنة ٦٦٣ هـ ، كما نظمها أبو بكر محمد بن إبراهيم بن محمد النابلسى المعروف بابن الشهيد ، والمتوفى سنة ٧٩٣ هـ . وسمّى كتابه « الفتح القريب » ، ثم أبو إسحاق الأنصارى التلمسانى .

هذا هو حظّ كتاب ابن إسحاق ، تناولته يد بعد يد ، مرّة بالجمع والتعقيب كما رأيت ، وأخرى بالشرح والتفصيل ، وثالثة بالاختصار ، ورابعة بوضعه فى ثوب جديد هو النظم .

فابن إسحاق — فى الحقيقة — هو عمدة المؤلّفين الذين اشتغلوا بوضع السير بعده ؛ حتى يمكننا أن نقول : ما من كتاب وضع فى السيرة بعد ابن إسحاق إلا وهو غُرْفَةٌ من بحره . هذا إذا استثنينا رجلا أو اثنين كالواقدى وابن سعد .

ابن إسحاق

(نسبه) :

هو محمد بن إسحاق بن يسار بن خِيار ، ويقال : ابن كوثان ، أبو بكر ، ويقال أبو عبدالله ، المَدَنىّ القُرَشِىّ ، مولى قيس بن مَخْرمة بن المطَّلب بن عبد مناف .

كان جدّه يسار من سبي عين التمر ، وهي بلدة قديمة قريبة من الأنبار ، غربي الكوفة ، على طرف البرية ، افتتحها المسلمون أيام أبي بكر سنة ١٢ هـ ، على يد خالد ابن الوليد ، وبكنيسة عين التمر وَجَد خالدُ بن الوليد جدّ ابن إسحاق هذا بين الغلمة الذين كانوا رُهُنا في يد كسرى ، وكان معه جدّ عبد الله بن أبي إسحاق الحضرميّ النحويّ ، وجدّ الكلبي العالم ، فجيء بيسار إلى المدينة .

(مولده ووفاته) :

ولد ابن إسحاق في المدينة ، وترجح كتب التاريخ أن مولده كان سنة ٨٥ هـ . أما وفاته فالأقوال فيها محصورة بين سنة ١٥٠ وبين ١٥٣ لا تكاد تعدو هذه السنين الأربع .

(نشأته وحياته) :

وليس من شكّ في أن ابن إسحاق خلع بالمدينة ثوب شبابه . ويحدّثنا الرُّواة عنه بأنه كان فتى جميلا ، جذّاب الوجه ، فارسيّ الخلقة ، له شَعرة حسنة . ومما يتصل بشبابه ومجونه — إن صحّ ما يقال عنه — ما حكاه ابن النديم من أن أمير المدينة رقى إليه أن محمدا يغازل النساء ، فأمر باحضاره وضربه أسواطا ، ونهاه عن الجلوس في مؤخر المسجد .

وترك ابن إسحاق المدينة ورحل إلى غيرها متنقلا في أكثر من بلد ، وفي ظننا أن رحلته إلى الإسكندرية — التي كانت سنة ١١٥ هـ — هي أولى رحلاته التي بدأ بها . وفي الإسكندرية حدث عن جماعة من أهل مصر ، منهم : عبيد الله بن المُغيرة ، ويزيد بن حبيب ، وثُمامة بن شُفَيّ ، وعبيد الله بن أبي جعفر ، والقاسم بن قُزْمان ، والسَّكْن بن أبي كريمة . وانفرد ابن إسحاق برواية أحاديث عنهم لم يروها لهم غيره

ثم كانت رحلته إلى الكوفة ، والجزيرة ، والرَّيّ ، والحيرة ، وبغداد ، وفي بغداد — على الأرجح — ألقى عصا التَّرحال ، والتقى بالمنصور ، وصنَّف لابنه المهدي كتاب السيرة كما أسلفنا . ورُواة ابن إسحاق من هذه البلدان أكثر ممن رَوَوْا عنه من أهل المدينة ، بل المعروف أنه لم يروِ له من أهل المدينة غير إبراهيم بن سعد وعاش ببغداد ما عاش حتى وافته منيته بها ، فدفن في مَقْبرة الخيزُران .

(منزلته ومكانته) :

إن المتتبع لأخبار الرواة عن ابن إسحاق يجد إلى جانب الإسراف فى النيل منه ، الإسراف فى مدحه ، فتجد عالما جليلا كالإمام مالك بن أنس ، وآخر كهشام بن عُروة بن الزبير ، يكادان يخرجانه من حظيرة المحدِّثين ، أهل الصدق والثِّقة ، ولا يدّخران وسعا فى اتهامه بالكذب والدَّجْل. ذلك إلى اتهامات أخرى رُمِىَ بها ابن إسحاق ، كالتدليس ، والقول بالقَدَر ، والتشيع ، والنقل عن غير الثِّقات ، وصُنع الشعر ووضعه فى كتابه ، والخطأ فى الأنساب .

كما أنك تجد غير واحد من الأئمة الأعلام ، كابن شهاب الزهرىّ ، وشعبة بن الحجَّاج وسفيان الثورىّ ، وزياد البَكَّائىّ ، يوثقونه ولا يتّهمونه بشىء من هذا .

وفى الحقّ أن جملة الحاملين عليه لم تكن مبرأة عن الغاية . ولم تكن من الحقّ فى شىء . فانا نعلم عن ابن إسحاق أنه كان يطعُن فى نسب مالك بن أنس ، وفى علمه ، ويقول : ائتونى ببعض كتبه حتى أبين عيوبه ، أنا بيطار كتبه . فانبرى له مالك ، وفتَّش هو الآخر عن عيوبه ، وسماه دَجالا ، وكانت بينهما هذه الحرب الكلامية .

كما غاظ هشام بن عبد الملك من ابن إسحاق أنه كان يدعى روايته عن امرأته ، والرواية فى ظنّ هشام لابدّ أن تصحبها الرؤية ، وهو ضنين بزوجه أن يراها أحد . ـ ولقد فات هشاما أن الرواية قد تكون من وراء حجاب ، أو أن ابن إسحاق حمل عنها صغيرا . ثم مالهشام يؤذيه هذا ، وقد كانت سنّ زوجه يوم يصحّ أن يحمل عنها ابن إسحاق لاتقلّ عن خمسين سنة ، فهى تسبقه فى الوجود بما يقرب من ٣٧ عاما ، ذلك إلى أنه لم يكن غريبا فى ذلك العصر أن يروىَ رجل عن امرأة .

وأما ما رمى به ابن إسحاق من التدليس وغيره ، فقد عقد فى ذلك الخطيب فى كتابه « تاريخ بغداد » ، وابن سيد الناس فى كتابه « عيون الأثر » فصلين عرضا فيهما لتفنيد جميع المطاعن التى وُجهت إليه ، نلخص منهما ما يأتى :

وأما ما رُمى به من التدليس والقَدَر والتشيُّع فلا يوجب ردّ روايته ، ولا يوقع فيها كبير وهْن . أما التدليس فمنه القادح وغيره ، ولا يحمل ما وقع هاهنا من مطلق

التدليس على التدليس المقيد بالقادح فى العدالة ، وكذلك القدَر والتشيُّع لايقتضيان الردّ إلا بضميمة أخرى ، ولم نجدها هاهنا .

ثم عرضا بعد ذلك للردّ على طعن الطاعنين واحدا واحدا ، كقول مكى بن إبراهيم ، إنه ترك حديث ابن إسحاق ولم يعد إليه ، وكقول يزيد بن هارون : إنه حدث أهل المدينة عن قوم ، فلما حدثهم عنه (يريد ابن إسحاق) أمسكوا . وكقول ابن نمير : إنه يحدّث عن المجهولين أحاديث باطلة ، إلى كثير غير هذا نجتزئ منه بما ذكرنا ، ونردفه بما قيل فى الردّ عليه ، فالكلام فى هذا متشابه ، والإكثار منه مملول ، وجلّ مالنا عن الرجل أن الحكم له أرجح من الحكم عليه ، قالا : وأما قول مكى بن إبراهيم : إنه ترك حديثه ولم يعد إليه ، فقد علل ذلك بأنه سمعه يحدّث أحاديث فى الصفات فنفر منه ، وليس فى ذلك كبير أمر ، فقد ترخص قوم من السلف فى رواية المشكل من ذلك ، ولا يحتاج إلى تأويله ، ولا سيما إذا تضمن الحديث حكما أو أمرا آخر ، وقد تكون هذه الأحاديث من هذا القبيل . وأما الخبر عن يزيد بن هارون أنه حدث أهل المدينة عن قوم ، فلما حدثهم عنه أمسكوا ، فليس فيه ذكر لمقتضى الإمساك ، وإذا لم يذكر لم يبق إلا أن يجول فيه الظنّ ، وليس لنا أن نعارض عدالة منقولة بما قد نظنه جرحا .

وأما قول ابن نمير : إنه يحدث عن المجهولين أحاديث باطلة ، فلو لم يُنقل توثيقه وتعديله لتردّد الأمر فى التهمة بما بينه وبين من نقلها عنه ، وأما مع التوثيق والتعديل فالحمل فيها على المجهولين المشار إليهم لا عليه .

بقيت مسألة ، وهى اتهام ابن إسحاق بأنه كانت تُعمل له الأشعار ، ويؤتى بها ، ويسأل أن يدخلها فى كتابه فى السيرة ، فيفعل .

وفى الحقّ أن هذا مأخذ على ابن إسحاق ، إن لم يكن فى طريقة النقل والتحمُّل ، فهو مطعن فى مقدار علمه بالشعر ، وأنه يقبل الأشعار غثها وسمينها ، باطلها وصحيحها ولو أن ابن إسحاق حكّم ذوقه ، ووقف من هذه الأشعارُ وقفة الناقد ، لخلّص كتابه من أشعار أكثر الظنّ فيها أنها موضوعة ، ولخلّص نفسه من مطعن جارح يسجله الكتاب عليه على مرّ السنين .

وإذا كنا قد انتهينا إلى هذا من حياة ابن إسحاق ، فلا نجد بين أيدينا ما نختم به هذا المقال خيرا من عبارة ابن عدىّ ، إذ يقول :

« ولو لم يكن لابن إسحاق من الفضل إلا أنه صرف الملوك عن الا شتغال بكتب لايحصل منها شيء للاشتغال بمغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومبعثه ، ومبتدأ الخلق ، لكانت هذه فضيلة سبق بها ابن إسحاق ، وقد فتشت أحاديثه الكثيرة فلم أجد ما تهيأ أن يُقطَع عليه بالضعف ، وربما أخطأ واتّهم فى الشيء بعد الشيء كما يُخطئ غيره .

ولم يتخلّف فى الرواية عنه الثّقات والأئمة ، أخرج له مسلم فى المبايعات ، واستشهد به البخارى فى مواضع ، وروى له أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه »

ابن هشام

(نسبه) :

هو أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوبَ الحِمْيَرىّ ؛ ومن الرواة من يردّه إلى مَعافِر بن يعفر ، وهم قبيل كبير ، نزح إلى مصر منهم جمهرة كبيرة ؛ ومنهم من يردّه إلى ذُهْل ؛ كما يردّه آخرون إلى سَدوس . لاتكاد تجد فى ذلك رأيا فاصلا . وهذا شأن كل رجل تنازعه أكثر من بلد ، ولم يعش حيث نشأ بيته ، وقرّت أسرته ، ثم لم يكن بيته — فوق هذا — من النسب، بالمنزلة التى يحرص الناس على حفظها وروايتها .

(نشأته) :

نشأ ابن هشام بالبصرة ، ثم نزل مصر . هكذا يحدثنا الرواة عنه، ولا يذكرون له حياة فى غير هذين البلدين ، ولكننا نظن أن حياة ابن هشام لم تكن محصورة فى هذين المِصْرين ، وخاصّة فى عصر كان العلم فيه يؤخذ سماعا ، وكانت الرحلة فى طلبه ديدن العلماء .

(مولده ووفاته) :

والقول فى وفاة ابن هشام غير مقطوع فيه برأى ، فبينما يذهب فريق إلى أن وفاته كانت سنة ٢١٨ هـ . إذا بفريق آخر يحدثك أن وفاته كانت سنة ٢١٣ هـ .

وإذا كان هذا حديث وفاته ، فما بالك بالحديث عن ميلاد رجل نازح ، أقرب الظنّ أنه عرّج على غير بلد قبل أن ينزل مصر . من أجل هذا ظلّ ميلاد ابن هشام سرّا دفينا فى ضمير الآيام .

(منزلته) :

وقد كان رحمه الله إماما فى النحو واللغة والعربية . ويحدثنا عنه الذهبى وابن كثير ، أنه حين جاء إلى مصر اجتمع به الشافعى ، وتناشدا من أشعار العرب أشياء كثيرة . وغريب أن نسمع هذا، ونحن نعلم أن ابن هشام كان حين ينقل عن ابن إسحاق أشعارا فى هذا الكتاب ، ظاهرة الوضع فاسدة ، لايستطيع أن يقطع فيها برأى ويقول : هكذا حدثنا أهل العلم بالشعر ، ناقلا عنهم ، غير محكم ذوقا اكتسبه من هذا شأنه فى استيعاب الأشعار .

(آثاره) :

ولابن هشام أكثر من مؤلف فى أكثر من فنّ ، فله غير أثره فى سيرة ابن إسحاق : شرح ما وقع فى أشعار السير من الغريب ، وكتاب التّيجان ، لمعرفة مُلوكِ الزمان ، وقد طبع حديثا .

هذه كلمتنا عنه ، وقد أسلفنا عنه كلمة أخرى خلال الحديث عن السير ، وأنه كان رجل السيرة الذى انتهت إليه سيرة ابن إسحاق، وغلب اسمه عليها فعرفت به ، وأن فضله فيها كان لايقلّ عن فضل ابن إسحاق .

السهيلى

(اسمه ولقبه) :

هو عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أصْبَغَ بن الحسين بن سَعدون بن رِضوان بن فتوح : الإمامُ الحبرُ أبو القاسم ، وأبو زيد ؛ ويقال : أبو الحسن ، بن الخطيب أبى محمد بن الخطيب أبى عمرو بن أبى الحسن الخَثْعَمى السُّهَيْلِىّ الأندلسى المالقى .

(موطنه والبلاد التى تنقل فيها) :

وسُهَيل الذى يُنسب إليه عبد الرحمن، واد بالأندلس من كُورة مالَقة ، فيه قُرى ، وفى إحدى هذه القُرى ولد عبد الرحمن [1] . وأقام فى الأندلس عمرًا طويلا نَهَل من بحار العلم ما نهل ، وتزوّد من المعارف ما تزوّد، وأصبحت له مكانة عالية وسعى إليه الناس يطلبون العلم عليه، فطارت شهرته إلى مَرَّاكُش ، فطلبه واليها ، وأحسن إليه ، وأقبل عليه . وولاّه قضاء الجماعة ، وحسُنت سيرته ، وأقام السُّهَيلى بمَرَّاكُش أعواما ثلاثة ، ثم وافته منيته ، فمات بها .

(مولده ووفاته) :

تحدثنا المراجع بأن السنة التى وُلد فيها أبو القاسم كانت سنة ٥٠٨هـ ، وتحدّثنا أيضا بأنه توفى سنة ٥٨١ هـ . ويذكر ابن العماد الحنبلى فى كتابه «شذرات الذهب» أن أبا القاسم ممن تُوُفُّوا سنة ٥٨١ ، ويَذكر إلى جانب هذا أن وفاته كانت فى شعبان من تلك السنة ، وأنه عاش اثنتين وسبعين سنة .

(مؤلفاته وعلمه وأخلاقه) :

أشهر تواليف السُّهَيلى كتابه : الرَّوض الأُنُف ؛ قال الصَّفَدى فى نَكْت الهِمْيان : « وهو كتاب جليل جَوَّدَ فيه ما شاء، وذكر فى أوّله أنه استخرجه من نيف وعشرين ومئة ديوان » . وله كتاب التعريف والإعلام بما فى القرآن من الأسماء الأعلام ، وكتاب نتائج النظر ، ومسألة رؤية الله عزّ وجلّ ورؤية النبىّ صلى الله عليه وسلم فى المنام ، ومسألة السرّ فى عَوَر الدجال . وشرح آية الوصية ؛ وشرح الجمل – ولم يتمّ – ومسائل كثيرة غير هذه اكتفى المترجمون بالإشارة إليها دون التصريح بأسمائها .

ولم يقع فى أيدينا للسُّهَيْلى غير الرَّوض الأُنُف ، الذى ألّفه فى مالقة قبل رحلته إلى مرَّاكُش، إذ كان بدء إملائه له فى شهر المحرّم عام ٥٦٩ هـ ، وكان الفراغ منه فى جمادى الأولى من ذلك العام .

وبحَسْب السُّهَيلى هذا الكتاب، فقد دلّ فيه على إلمام واسع ، واطلاع غزير

(١) قال الصفدى فى نكت الهميان : ولا يرى سهيل فى جميع المغرب، إلا من جبل مطل على هذه القرية .

بمناحٍ مختلفة ، وتمكّن فى ألوان كثيرة من العلوم ، فكان فيه المؤرّخ و اللغوى والأديب والنحوى والأخبارى والعالم بالقراءات . وكان السُّهيلى فوق هذا شاعرًا ، يؤثر له أبياته المشهورة فى الفرج :

قال ابن دَحية عن السهيلى : « أنشدنيها وقال : ما يسأل الله بها فى حاجة إلا قضاه إياها » . وهى :

يا من يرى ما فى الضمير ويَسمع — أنت المُعَــدُّ لكلّ ما يُتَوَقَّعُ
يا مَن يُرَجَّى للشّــدائد كلها — يا مَن إليــه المُشْتَكَى والمَفْزَعُ
يا من خزائن رزقه فى قول كُنْ — أمْنُنْ فانّ الخــير عندَك أجمَع
مالى سوى قَرعى لبابك حيــلةٌ — فلئن رُدِدْتُ فأىَّ باب أقْرع
مالى سِوى فقْرى إليك وسيلةٌ — وبالافتقار إليك فقرىَ أدْفع
من ذا الذى أدعو وأهتِف باسمه — إن كان فضلك عن فقيرك يمنع
حاشا لمجــدك أن تُقَنِّطَ عاصيا — الفضل أجزلُ والمواهب أوسَع

وله غير هذه أشعار كثيرة ، ذكر ذلك ابن العماد ، ولم يزدنا على أبياته فى الفرج شيئا . وذكر الصَّفَدىّ « فى نَكْتِ الهِمْيان » ، والمقرى فى « نَفْحِ الطِّيب » بعض مقطوعات له .

وإن نظرة واحدة إلى مؤلفات السهيلى كفيلة بأن تعطيك فكرة عن اتجاهه الخلقى وإن رجلا عاش للدين ، فوهب له حياته : ما بين درس له ، وتأليف فيه ، لخليق بأن يُعرَف بين الناس بالصلاح ، ويَشْتَهر بالورع والتّقوى ، وهكذا كان السُّهيلى . وكان فوق هذا عفًّا قنوعا يرضى بالكفاف .

ومما يُعرف عنه أنه كان مالكى المذهب ، وأنه كان ضريرا ، أضرّ فى السابعة عشرة من عمره ، وأخذالقراءات عن جماعة ، وروَى عن أبى بكر بن العربى وكبار رجالات العلم بالأندلس فى أيامه ،وأخذ اللغة والآداب عن ابن الطَّراوة ، وناظره فى كتاب سيبويه .

أبو ذر الخشنى

(نسبه) :

هو مُصْعَب بن محمد بن مسعود بن عبد الله بن مسعود الجَيَّانى الخُشَنِىّ . المعروف أيضا بابن أبى الرُّكب .

والجَيَّانىّ : نسبة إلى كورة واسعة بالأندلس ، تجمع قرى كثيرة ، وتتصل بكورة إلبيرة ، مائلة عنها إلى ناحية الجوف ، فى شرقى قُرطبة ، وبينهما وبين قرطبة سبعة عشر فرسخا . والخُشَنِىّ : نسبة إلى خُشَين كقريش قرية بالأندلس ، وقبيلة من قُضاعة ، وهو خُشَين بن النمر بن وبرة بن تغلب [1] .

والمعروف أن أبا ذرّ بقى بجيان حتى شبّ ، وقد سمع على أبيه ، وأخذ عنه ، وأنه لم يترك جيَّان إلا بعد أن تحوّل أبوه إلى غرناطة فى آخر أيامه ، وأن سنه عند ذاك كانت سنّ غلام إن أدرك العاشرة فلايعدوها إلابقليل — فالمدّة بين ميلاد أبى ذرّ ووفاة أبيه أحد عشر عاما تقريبا — ثم رحل إلى فاس يسمع بها عن أبى عبيد الله النميرى وأبى الحسن بن حسين وأبى عبدالله بن الرمامة ؛ ثم إلى تِلِمْسان يسمع بها عن أبى القاسم عبد الرحمن بن يحيى بن الحسن القرشى ، وأبى مروان عبيد الله بن هشام الحضرمى ، ثم إلى بِجاية يسمع بها عن أبى بكر بن رزق وأبى العباس الحرّوبى وأبى إسحاق بن مَلْكون وأبى محمد عبد الحقّ بن عبد الرحمن الأشبيلى .

ويظهر أن رحلاته إلى هذه البلاد الثلاثة كانت على الترتيب الذى سقناه ؛ لايرجح هذا لدينا مرجح ، غير أن ابن الأبار هكذا ساقها مرتبة على هذا النحو ، عند الكلام على شيوخ أبى ذرّ ، فبدأ بفاس ، ثم ثنى بتلمسان ، ثم ختم ببجاية .

وسواء أكان هذا أم غيره ، فقد عرفنا أن هذه البلاد الثلاثة نزلها أبو ذرّ . ثم نزل بعدها إشبيلية ، لامستمعا ، ولكن خطيبا لمسجدها ، وبقى فيها مدة ، وكان إلى جانب الخطابة يقوم بتدريس العربية ، ويقصده الطلاب الكثيرون . ثم ترك إشبيلية إلى جيان

(١) انظر الجزء الثانى من خزانة الأدب فى شرح الشاهد الثانى والثلاثين بعد الأربعمائة ص ٥٢٩ من طبعة بولاق .

بعد أن غاب عنها هذا العمر الطويل ، فولى قضاءها وجلس فيها للحكومة بين الناس ، والفصل فى خصوماتهم . ثم حنّ إلى فاس ثانية ، فترك جيّان إليها ، وأقام بها ، وكان فيها شيخ العربية والحديث يأخذ عنه الناس ، حتى وافته منيته بها .

(منزلته ومؤلفاته وشئ عنه) :

علّك ، وقد حدثناك عن شيوخ أبى ذرّ الذين سمع عنهم ، وكلهم من جلة العلماء ، ورحلته إليهم ، قد عرَفْتَ طموح هذه النفس إلى الاستزادة من العلم والتمكن فيه ، وأن صاحبها لم يقنع منه بقليل ، وأنت إذ عرفت المراتب التى تقلّبَ فيها أبو ذرّ بعد الحياة الأولى ، حياة الدرس والتحصيل ، تدرك معنا أنهُ وصل من العلم إلى غاية رفعته إلى تولى خطابة جامع إشبيلية أولا ، ثم قضاء جيان ثانيا ، ثم إلى أن يجلس مجلسه الآخير فى فاس يتمتع بصيت بعيد ، وذكر واسع .

ولقد نعته رجال التراجم فيما نعتوه به بأنه صاحب التصانيف التى سارت بها الركبان ، ومثل هذا ليس بكثير على أبى ذرّ ، إلا أنا لم نظفر له إلا بكتابه المطبوع فى شرح غريب سيرة ابن إسحاق ، الذى سمعه ابن فُرْتون عليه ، وكتاب آخر فى العروض ، ذكره ابن الأبار ولم يُسَمّه ، وكتاب ثالث ذكره السيوطى فى البغية فى أثناء حديثه عن أبى ذرّ ، فقال : « . . . تكرّر فى جمع الجوامع من تصانيفه الإملاء على سيرة ابن هشام » .

هذا كلّ ماعرفناه عن مؤلفات أبى ذرّ ، إلا أنا لاننسى أنه كان حامل لواء العربية بالأندلس ، وأنه كان عارفا بالآداب واللغات ، وأنه أحد من قرض الشعر ، وكان له نقادا ، كما كان مطلق العنان فى معرفة أخبار العرب وأيامها وأشعارها ولغاتها ، متقدما فى كل ذلك ، وأنه لم يكن فى وقته أضبط منه ، ولا أتقن فى جميع العلوم ، حفظا وقلما .

وأما أخلاق أبى ذرّ المالكى المذهب ، فقد كان ذا سَمْت ووقار ، وفضل ودين ومروءة ، كثير الحياء ، وَقُور المجلس ، معروفا بالهدى على سنن السلف . يحكى عنه أنه كان يمنع تلاميذه من التبسط فى الأسئلة ، وأنه كان يقصرهم على ما يلقى إليهم ولم يكن ذلك لأحد من عصره ، هيبة له ، وخشية منه .

(مولده ووفاته) :

يذكر المستشرق بولس برونله أن أبا ذرّ وُلد سنة ٥٣٣ – أى قبل موت أبيه بأحد عشر عاما ، إذ كانت وفاة أبيه سنة ٥٤٤ – وأن وفاة أبى ذرّ كانت سنة ٦٠٤هـ ويوافقه ابن الأبار على السنة التى توفى فيها أبو ذرّ ، ويزيد عليه بأن الوفاة كانت ضحى يوم الاثنين الحادى عشر من شوّال ، وأنه دفن لصلاة العصر من اليوم نفسه بعدوة القرويين فى فاس .

وأما ميلاده فيقول فيه ابن الأبار : « . . . ومولده سنة خمس ، وقيل سنة ثلاث وثلاثين وخمس مئة ، والأول أصح » .

ونحن نميل إلى قول ابن الأبار فى ميلاد أبى ذرّ ، فقد ذكر ابن العماد أن أبا ذرّ مات عن سبعين عاما ، وإذا صحّ هذا وصحّ عندنا أن أبا ذرّ – كما قال ابن الأبار – مات فى شوّال من سنة ٦٠٤ هـ ، كان ماذهب إليه ابن الأبار فى ميلاد أبى ذرّ أنه كان سنة ٥٣٥ هـ أقرب إلى الصواب .

عملنا فى السيرة

هاهو ذا كتاب السيرة بين أيدى القرّاء فى ثوبه الجديد يحدّث عما بذلنا من جهد فى إخراجه .

لقد كان همنا الأوّل أن نعارض النسخة المصرية التى بين أيدينا بجميع النسخ الأخرى ، خطية أو مطبوعة ، وجرينا فى الرمز إلى هذه النسخ بالحرف الآتية :

ا – للنسخة المطبوعة بمدينة جوتنجن بألمانيا سنة ١٢٧٦ هـ سنة ١٨٦٢ م .
وقد اعتمد ناشرها العلامة المستشرق « وستنفلد » ، على نسخة السهيلىّ المخطوطة ، التى أخذها عن أستاذه أبى بكر بن العربىّ الأشبيلىّ .

ب – للنسخة المطبوعة فى بولاق سنة ١٢٥٩ هـ .

ت – لنسخة خطية بالمكتبة التيمورية ، موجود منها الجزء الأول ، وهو ناقص من الأول ورقات ، وينتهى إلى شعر عثمان بن مظعون فى عتاب أمية بن خلف .

ر – للنسخة المطبوعة على هامش الرّوض الأُنُف بالمطبعة الجمالية بمصر سنة ١٣٣٢ هـ ، سنة ١٩١٤ ميلادية .

ط ــ للنسخة المخطوطة بخط القاسم بن زيد المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم ، والتى فرغ من كتابتها سنة ١١٤٤ هـ ، وهى محفوظة بدار الكتب .

ع ــ للنسخة المخطوطة بخط محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن الشافعى الدمشقى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ . وهى ناقصة من الأول والأثناء . وأول ما فيها من قُبَيل أسماء من شهد العقبة الأخيرة ، وهى محفوظة بدار الكتب .

م ــ للنسخة المطبوعة فى مصر بالمطبعة الخيرية سنة ١٣٢٩ هـ .

ن ــ لنسخة خطية لايعرف كاتبها ، ولا السنة التى كتبت فيها ، ولا يوجد منها إلا الجزءان : الأول و الثانى . وينتهيان إلى آخر ماقيل من الأشعار فى غزوة أحد ، وهى محفوظة بدار الكتب .

ثم استعنا بعد ذلك على تبيين المُغْلَق ، وتوضيح المُبْهم ، بالكتب التى عرضت للسيرة بمثل هذا ، كالروض الأُنُف للسهيلى ، وشرح السيرة لأبى ذرّ الخشَنىّ . وفى كثير من المواطن التى كنا نفقد فيها بغيتنا فى مثل هذين المرجعين كنا نلجأ إلى المراجع التى أشرنا إليها فى حاشية الكتاب .

وقد كنا نترجم للأعلام الواردة ، ونتَتَبَّعها بالتصحيح والضبط . بقى بعد ذلك تبويب الكتاب ، ووضعه أبوابا تحت هذه العناوين التى أثبتناها . وحين رأينا معظم النسخ قد أغفلت منها الكثير ، إذا بالنسخة الأوربية قد أسرفت فى ذلك ، فسلكنا نحن نهجا وسطا . فأخذنا من العناوين ما يصحّ أن يميز بابا مستقلا عن غيره ، ونفينا منها ما لايجرى مع هذه الفكرة ، ووضعنا العناوين التى بالحرف الصغير بين الأقواس فوق كلّ فكرة جديدة . لتكون عونا لنا على عمل الفهرس التفصيلى العامّ ، الذى ألحقناه بالكتاب .

وها نحن أولاء ، بعد أن بذلنا قُصارَى الجُهد فى السيرة نقدّم الطبعة الثانية منها فى هذه الحلة القشيبة راجين أن نكون أقرب إلى التوفيق ، وأدنى إلى الصواب .

مصطفى السقا   إبراهيم الابيارى   عبد الحفيظ شلبى